Journal of Alasmarya University
Vol. 37, Special Issue, December 2024, 255-296

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد 37، عدد خاص، ديسمبر 2024، 255-296

ISSN: 2706-9524 (Print) ISSN: 2706-9532 (Online)

DOI: https://doi.org/10.59743/jau.v37i5.2129

الوطنية في ليبيا المستعمرة من خلال حركة عمر المختار

د. رابحي رضوان بن مبارك
الاكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق
وزارة التربية الوطنية والتعليم الاولى والرياضة، المغرب
rabhi_radwan@hotmail.com

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى التعرف على ما كتبه المستشرقون عن حركة الجهاد في ليبيا ومن أهمها الدراسة المنشورة باللغة الفرنسية سنة 1988 أنجزها المؤرخ الإيطالي رينيرو رومان، حول الوطنية في ليبيا زمن الاحتلال الإيطالي، قارب فيها إشكالية "النزعة أو الإيديولوجية الوطنية" في حركة عمر المختار، بالاعتماد على منهجية تاريخية صارمة عمادها تحليل مضامين "وثائق أرشيفية"، من خلال تفكيك نص البيان الرسمي لمؤتمر غريان "الوحدوي" الصادر بتاريخ 18 نونبر 1920 الذي تحدث صراحة عن أمة ليبية واحدة تتوق إلى الاستقلال، وتبحث عن نموذج سياسي للحكم خاص بها. كما استعان بسلسلة من الرسائل المحفوظة بالأرشيف الكولونياني الإيطالي، الصادرة عن عمر المختار خلال المرحلة الأخيرة من المقاومة، وذلك لفهم الأفكار السياسية للمقاومة الليبية في المرحلة الأخيرة من الصراع المسلح، واتضح من خلالها أن الوحدة الوطنية، والإسلام، واللغة العربية، شكلت عناصر الهوية الوطنية الليبية. بيد إن الدراسة لا تخلو من مفاهيم ونعوت تندرج ضمن الخطاب الاستعماري، وتروم التبرير الأيديولوجي لعملية الغزو الإيطالي لليبيا، تم التنبيه إليها في حينها.

الكلمات المفتاحية: الوطنية ، ليبيا المستعمرة ، عمر المختار ، مؤتمر غريان، الارشيف الإيطالي.

عدد خاص بالمؤتمر الدولي الأول لقسم التاريخ والحضارة الإسلامية المقام في الجامعة الأسمرية الإسلامية، زليتن، ليبيا، في الفترة 29 -31 أكتوبر 2024م بعنوان: تاريخ ليبيا وحضارتها من خلال الوثائق والمخطوطات، تحت شعار: الوثائق والمخطوطات ذاكرة الوطن وهويته
Available online: 23 December 2024

Nationalism in colonial Libya through the movement of Omar Al-Mukhtar

Dr. Rabhi Radwan Ben Mbarek
Regional Academy of Education and Training for the Oriental Region
Ministry of National Education
Primary Education and Sports, Morocco.
rabhi_radwan@hotmail.com

Abstract
This research aims to identify what orientalists have written about the jihad movement in Libya, most notably the study published in French in 1988 by the Italian historian Renero Roman on nationalism in Libya during the Italian occupation. In it, he approached the problem of "nationalism or ideology" in Omar Al-Mukhtar's movement, relying on a strict historical methodology based on analyzing the contents of "archival documents", by deconstructing the text of the official statement of the Gharyan "unity" conference issued on November 18, 1920, which spoke explicitly about a single Libyan nation yearning for independence and searching for its own political model of governance. He also used a series of letters preserved in the Italian colonial archives, issued by Omar Al-Mukhtar during the last phase of the resistance, in order to understand the political ideas of the Libyan resistance in the last phase of the armed conflict, and it became clear from them that national unity, Islam, and the Arabic language formed the elements of the Libyan national identity. However, the study is not without concepts and descriptions that fall within the colonial discourse, and aim to provide ideological justification for the Italian invasion of Libya, which was pointed out at the time .

***Keywords**: Nationalism, Colonial Libya, Omar Al-Mukhtar, Gharyan Conference, Italian Archives.*

المقدمة:

أصل هذا المقال، دراسة منشورة باللغة الفرنسية سنة 1988 أنجزها المؤرخ الإيطالي رينيرو رومان، حول الوطنية في ليبيا زمن الاحتلال الإيطالي، قارب فيها إشكالية "النزعة أو الإيديولوجية الوطنية" في حركة عمر المختار، بالاعتماد على منهجية تاريخية صارمة عمادها تحليل مضامين "وثائق أرشيفية"، من خلال تفكيك نص البيان الرسمي لمؤتمر غريان "الوحدوي" الصادر بتاريخ 18 نونبر 1920 الذي

تحدث صراحة عن أمة ليبية واحدة تتوق إلى الاستقلال، وتبحث عن نموذج سياسي للحكم خاص بها. كما استعان بسلسلة من الرسائل المحفوظة بالأرشيف الكولونياني الإيطالي، الصادرة عن عمر المختار وأعوانه خلال المرحلة الأخيرة من المقاومة، من أجل محاولة فهم الأفكار السياسية للمقاومة الليبية في المرحلة الأخيرة من الصراع المسلح، واتضح من خلالها أن الوحدة الوطنية، والإسلام، واللغة العربية، شكلت عناصر الهوية الوطنية الليبية. بيد إن الدراسة لا تخلو من مفاهيم ونعوت تندرج ضمن الخطاب الاستعماري، وتروم التبرير الإيديولوجي لعملية الغزو الإيطالي لليبيا، تم التنبيه إليها في حينها

رينيرو روما، باحث ومؤرخ إيطالي اشتغل أستاذا بجامعة ميلانو، مهتم بتاريخ المغرب إبان الاستعمار

ترجمة لمقال:

RAINERO Romain, **Une doctrine "nationale" dans la Libye coloniale d'après Omar Al-Moukhtar**, In: Cahiers de la Méditerranée, n°37, 1, 1988. Intellectuels et militants dans le monde islamique, p. p. 253-273

ملاحظة: الهوامش المثبتة أسفل كل صفحة هي هوامش المؤلِّف رينيرو رومان، أما الهوامش المثبتة في آخر المقال، المرقونة، في المتن، بخط مائل بين قوسين، فقد أضفناها للتعريف ببعض الأعلام والمصطلحات. كما تدخلنا أحيانا في متن المقال لتوضيح ما بدا غامضا بين معقوفتين [ ].

- **من إنجاز الدكتور رابحي رضوان، مهتم بتاريخ المغرب الكبير.**

النص المعرب:

بعد المستجدات الأخيرة المتعلقة بتاريخ المقاومة العربية للوجود الاستعماري الإيطالي من بدايته إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، لعل الوقت قد حان لطرح بعض الأسئلة المحددة حول المعنى الحقيقي لهذه المقاومة من حيث أهدافها. فهي تثير تساؤلات كثيرة، وقد سجّل أندري مارتل André Martel حولها، مؤخرا، بعض الملاحظات التي نعتبرها ثمينة، إذ يقول: " يحتاج [موضوع المقاومة الليبية] إلى مزيد من البحث والتدقيق، فعلى سبيل المثال، كيف استطاع عمر المختار الصمود على غرار الأمير عبد

القادر وغيره؟ ولماذا نجح في ذلك على الرغم من استقطاب إيطاليا للأهالي وتجنيدهم، حيث لَم يكن الغزو الاستعماري لِيَتِمّ في ليبيا، وفي أماكن أخرى بسهولة، دون مساهمتهم؟"[1]

ركّز المؤرخون الإيطاليون المهتمون بالعُشرية الأخيرة من المقاومة [1920– 1931م] أبحاثهم على التاريخ الحدثي (L'histoire événementielle) بعد اكتشاف مجموعة من المعطيات المتعلقة بالجوانب الاستراتيجية للتهدئة[(i)] الفاشية وتحولاتها، والتي كانت في الغالب أصل أسطورة الاستعمار الفاشي، ومكّنَتْنَا من التعرف على مراحل هذه التهدئة، ورجالاتها، وأضرارها، مما يسمح لنا بالقول إنها لم تكن تهدئة سلمية بشكل تام[2] .. في هذه الفترة المؤلمة من جهود العرب في مواجهة التغلغل الاستعماري في طرابلس وفزان، وخاصة في برقة، لَفَتَ انتباهنا عنصران بارزان: اجتماع "المؤتمر الوطني" في غريان Gharian في نوفمبر 1920، ثم حركة الرجل الذي يسمى اليوم بوالد الأمة الليبية، عمر المختار، والتي كانت أكثر إثارة. وخلْف هذين العنصرين، بَدا واضحا "الغياب المستمر" للإخوة السنوسيين[(ii)]، فمن واحة الجغبوب النائية إلى مدينة القاهرة، "عاصمة المنفى"، حيث استقر شيخ السنوسية البارز ادريس محمد[(iii)] بصفته مسؤولا وطنيا، في جو مُشبع بالروح الوطنية في الواقع، لكن، مع ذلك، لم يكن هناك إجماع حول "وطنيته". لقد وظفنا عبارة "الغياب المستمر" فيما يتعلق بقائد السنوسية لمبررين محددين: يعود الأول إلى

[1] A. Martel, in *Revue Française d'Histoire d'Outre-Mer*, 1984, n° 262-3, p. 85

[2] يتعلق الأمر بالمؤلفات التالية:

E. SALERNO, Genocidjo in Libia. Le atrocità nascoste dell'avventura coloniale (1911-1931), Milan, Sugarco, 1979, p. 14O ; et A.A.Mola, l'Imperialismo italiano, Rome, Editori Riuniti, 198O, p. 246 ; et R. Rainero, Paolo Valera e l'opposizione democratica aU'impresa di Tripoli, rome Breitschneider, 1983, p. 130

وخاصة العمل الجماعي :

Santarelli-Rochat-Rainero-Goglia, Omar al-Mukhtar e la riconquista fascista délia Libia, Milan, Marzorati, 1981, p. 336

النفوذ المحدود للسنوسية في المجال الليبي، أما المبرر الثاني فهو ذو طابع سياسي، ويرتبط بوضعية ادريس وأهله بالقاهرة.

على المستوى الفكري؛ يبدو الحديث عن "وطنية" ما في ليبيا المقاومة ضد الاستعمار، ذا أهمية بالغة، غير أنه يواجه صعوبات جمّة، زادت منها نهاية المقاومة المسلحة خلال سنتي 1930- 1931 التي قضت على كل معارضةٍ لسياسة "بقعة الزيت" المتبعة من قبل سلطات روما عبر جهازها العسكري، بهدف إضعاف المقومات الإيديولوجية لهذه المقاومة. كما استغل الإيطاليون الحضور المحدود لإدريس في ربوع الوطن الليبي، وانحصار سلطته الروحية في برقة، لإفشال أي نشاط سياسي وطني محتمل. والواقع أن عدم الإجماع على حركته من حيث وظائفها السياسية العامة، في ظل وجود مركزها خارج ليبيا (في أجواء القاهرة المريحة، خلافا لظروف الحياة الصعبة للمقاومين الليبيين) لم يُسهم قَطّ في تلميع صورته "الوطنية".

بالنسبة إلى الإيطاليين، فإن مجرد التفكير في الحديث عن حضور قيمٍ أخلاقيةٍ في حربهم على "الخونة"[iv] غير وارد على الإطلاق، في سياق تاريخي طبعه الوجود الاستعماري الإيطالي في ليبيا، الذي تأسس على مبدأ الشرعية الكاملة والحصرية حيث اعتُبِر عودة لروما إلى أرض امتلكتها قديما، أو توسعا متروبوليا في مجالها الترابي الخاص كما هو الشأن بالنسبة إلى فرنسا في الجزائر. في هذا الصدد، تُعد محاكمة زعيم المقاومة ضد الاستعمار، عمر المختار في 15 شتنبر 1931، إحدى أبرز المحاكمات السياسية، فالتّهَم الستة عشر التي وُجهت له من اختصاص الحق العام، وتراوحت بين قطع الطريق والسرقة، وبين الغارة والكمين، وبين سرقة المواشي ونصب الكمائن. بالمقابل لم تُوجّه له أي تهمة سياسية أو إيديولوجية، على الرغم من التصريحات المتكررة للمتهم في "محضر سري" أُخفِيت فيه التفاصيل التي

تشكك في مشروعية الحكم القضائي القاسي؛ الموت شنقا دون الأخذ بعين الاعتبار الدوافع الحقيقية التي كانت وراء أفعال المتهم، وتقدمه في العمر (73 سنة). في هذه المحاكمة الصورية، ظلت الرواية الإيطالية حول "الخيانة" التي قام بها قائد المقاومة في برقة هي الرواية الرسمية (ولكن ليست تلك المتعلقة بالمحضر السري)، واستمر ترديدها حتى عند أحد الباحثين المعاصرين، بيرنار لاني Bernard Lannè، الذي زكّاها ومنحها المصداقية من جديد قائلا: " بعد القبض على عمر المختار بتاريخ 11 شتنبر 1931 تم إعدامه، بعد أن كان حاضرا في اجتماع 13 يونيو، ثم عاد من جديد إلى الانشقاق"[1]. بعد مرور أزيد من خمسين عاما، مازالت أطروحة "الخيانة" تحتفظ بقيمتها داخل الإسطغرافيا الفاشية الرسمية، ووجدت من يدعمها، على الرغم من أن الوثائق حاليا تؤكد أن عمر المختار لم يُقَدم أي طلب للاستسلام للسلطات الإيطالية، لذلك وجب النظر إليه باعتباره محاربا وليس خائنا سلّم نفسه بأي طريقة. وهي الحقيقة التي اعترف بها الجنرال رودولفو كرتسياني الذي أصدر حكم الإعدام في حق عمر المختار، بصفته نائب حاكم ليبيا ومقدم عسكري أول، في مذكراته قائلا: " ظل عمر المختار صامتا، متشبتا بموقفه، رغم كل المحاولات لجره للاستسلام..."[2]. وهذا ما ينبغي أن يعرفه الإيطاليون من أجل تفنيد أسطورة "الخيانة" التي اتهم بها عمر المختار.

لِنَعُد إلى العنصر الأول، الذي استحضرناه سابقا لدراسة معنى "الإيديولوجية الوطنية" عند عمر المختار، وهو البيان الرسمي لغريان الصادر بتاريخ 18 نونبر 1920 الذي يظهر لنا ذو أهمية بالغة، لأنه أول وثيقة تُثير بشكل واضح جدا جانبا كان حتى هذه اللحظة، غائبا تماما أمام قوة حضور زعماء المقاومة والإخوان السنوسيين؛ يتعلق الأمر بإرادة شعبية أكدت وجود أمة لها مطالبها الخاصة، وتتوق إلى

[1] B. Lanne, La querelle des frontières Tchad-Libye, Paris, Karthala, 1982, p. 1OO

[2] R. Graziani, Libia redenta, Naples, Torella, 1948, p. 215.
هذه هي الطبعة الأخيرة من كتاب la Cirenaica pacificata الصادر سنة 1932.

ترسيخ هويتها وقيمها. فالبيان لم يكن مجرد وثيقة عادية، بل شكل ميثاقا لإرادة شعب ليبي موحد بدأت تظهر في الأفق، رغم وجود صعوبات حقيقية. لقد وجد المنتدبون المجتمعون في غريان صيغة جديدة بِخِطابٍ تَجَاوَزَ الصعوبات المؤقتة لِيَنْكَبّ على حل المشكل الدائم المتعلق بالنموذج السياسي الليبي، الذي طال أمده: "...إن الحالة التي آلت إليها البلاد – يؤكد الإعلان – بسبب التعليقات التي سبقت وتلت القانون الأساسي[1] [v]، لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة وطنية قوية وقادرة ومؤسَّسة على ما يحقق مقاصد الشريعة الإسلامية بزعامة رجل يُنتخب من الأمة، ولا يُعزل إلا بحجة شرعية وقرار من مجلس النواب، وتكون له السلطة المدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تُقره الأمة الليبية بواسطة نوابها، وأن يشمل حُكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة ..." [2] [vi]. كما تضمنت هذه الوثيقة التي كثيرا ما أُهمِلت من قِبل المتخصصين في المسألة الليبية، مقطعا يستحق أن نذكره هنا: ".إن أكبر آمال هذه الأمة هي تحقيق الاستقلال وإرساء النظام وتعميم الأمن والعدالة" [vii].

جاء البيان الصادر عن مؤتمر غريان، لأول مرة، متحررا من مراقبة ووصاية زعماء الحركة السنوسية التي كانت دائما تبدو بعيدة، لكنها، ستتخذ مع ذلك، موقفا يزكّي التدابير الملموسة التي أعلنها البيان بخصوص المستقبل السياسي للأمة التي أضحت منذ هذه اللحظة "أُمة" بما تحمل الكلمة من معنى. لقد تم التأسيس لتقدم سياسي واضح يؤكده نضج الرؤى التي أعقبت القانون الأساسي، وردود الفعل إزاء خطاب الإدماج الاستعماري الذي بدأ يظهر في أوساط الرأي العام الإيطالي، استمرارا للنهج الذي

[1] يتعلق الأمر بقانون فاتح يونيو 1919 أو القانون الأساسي الذي يُعد تعبيرا عن سياسة استعمارية ليبرالية، والذي تم تجميده على الفور من قِبل الحكام الاستعماريين الإيطاليين، للمزيد حول الموضوع يراجع: E. de Leone, La colonizzazione dell'Africa del Nord, vol. 2, Padoue, Cedam, 196O؛ هذا الكتاب، الذي تجنب إثارة موضوع القانون الأساسي وتداعياته، وأشاد بالمقابل بالسياسة الإيطالية القوية.

[2] لم يكن النص الداخلي للإعلان موضوع دراسة من قبل أي من الباحثين، واكتفى باحث واحد بنشره بشكل مخالف لمحتواه،

R. Rapex, L'affermazione délia sovranità italiana in Tripolitania (1921-1929). Tien Tsin (Chine italienne), Chihli Press, 1937, p. 84

اتبعه " سيارا سيات" Sciara Sciât سابقا في ليبيا، والذي كان "طبيعيا وشعبيا"[viii] (instinctive et populaire)، وبدون موقف سياسي ملموس. وهو الأمر الذي منح لقاء غريان أهمية خاصة كثيرا ما تجاهلها المختصون في المسألة الليبية[1]. مثّل بيان مؤتمر غريان، لأول مرة، مطلب "أمة" ورغبتها في إقامة نظام سياسي يُمْكن تحليله انطلاقا من القرارات التي أعلنها: حكومة مسؤولة منبثقة عن توافق انتخابي، لها صلاحية التدبير المباشر للقضايا المطروحة في البلاد، وتهدف إلى تحقيق "النظام والأمن والعدالة". هذه هي الأسس السياسية التي خرج بها "الإعلان" الذي يؤكد بالطبع المرجعية الإسلامية، ولكنه يرفقها بخيارات أخرى. وهكذا يمكن أن نتحدث عن الرغبة في إقامة نظام وطني ديمقراطي، برلماني وتمثيلي.

هل يمكن القول إن مقررات مؤتمر غريان كانت محل إجماع كل القوى السياسية المحلية؟ نعم من الممكن، خاصة إذا استحضرنا المصالحة بين القوى المحلية بعد صراع مستمر قوبل بارتياح واضح من لدن إيطاليا. ويندرج في هذا الإطار "الاتفاق التاريخي" الموقع بتاريخ 10 غشت 1921 بين الطائفتين السنية والإباضية المتعارضتين، ويبدو لنا في غاية الأهمية، لإنه أسّس لسلام دائم بينهما؛ حيث أعلنَا التنازل المتبادل عن المطالبة بتعويض خسائر الحرب، وأكّدَا أن كل من سولت له نفسه تقويض هذا السلام سيتعرض لعقاب الأمة بأكملها:

"اجتمعنا نحن أعيان المرابطين والمشاشة ومن معهم من قرى الخلايفة والرياينة الى أولاد يحي كذلك، نائبين عن قبائلنا، وقررنا أعيان الطرفين[ix] بحضور الهيئة الصلحية المشار إليها بأننا اعتبارا من تاريخ اليوم تركنا الماضي بجميع وقائعه الحربية والعداوة القبلية مع التمسك بأحكام الشريعة المحمدية

[1] على سبيل المثال، لم يقدم R. Pichon في مؤلفه حول الموضوع أي مصدر.

بالسر والعلانية، ونستقر جميعا على صلح حقيقي وهدوء تام وحرمة متقابلة توافق روح الدين ومصلحة الوطن، بحيث نتعهد ونتكفل لجامعة الأمة بأن لا يحدث منا في المستقبل ضرب ولا نهب ولا تجاوز على حرمات الوطن، ونكف الاعتداء ونؤمّن الراحة، وأن نعتبر الضائعات الحربية كأن لم تكن ونكتفي بالحقوق الشخصية التي قبل الحرب وأن من اعتدى من الطرفين بعد هذا العقد السلمي فالجامعة الطرابلسية عموما عليه، ولها الحكم المطلق في ردعه وزجره بأى شكل تريده من التأديب. وإذا وقع في المستقبل اغتصاب لأموال أو وقوعات مفردة فمتعهدون بتسليم المتسببين بحكم الشرع وجامعة الإسلام الطرابلسية ليجرى في حقهم ما يقتضى شرعا.

قررنا ذلك بعد المذاكرة والاتفاق. وتعاهدنا على المحافظة في الحال والاستقبال كل منا عن قبيلته ونوفى بهذا العهد والالتزام الذي يأمر به الدين المحمدي وختم مجلسنا بالتعانق والتسامح والدعوات الصالحة لعموم الأمة المحمدية والأمة الطرابلسية والله الموفق[1].

كانت هذه الرغبة في الوحدة الوطنية والتهدئة الإيديولوجية تتوخّى مواجهة المشكلات التي أفرزها الحضور الاستعماري الإيطالي، مع العلم أن هذا الحضور كان قد بدأ يأخذ مظاهر كولونيالية "ديمقراطية" مع اتفاقيات الرجمة في 25 أكتوبر 1920(x) التي أكدتها معاهدة بومريم في 3 نونبر 1921. توقيع هذه المعاهدات والاتفاقيات لم يمنع من حدوث غليان سياسي في صفوف الوطنيِّين الليبيين؛ فقد عارضوا بشدة منح الملك الإيطالي منصب الإمارة لادريس، والاعتراف به ممثلا للوحدة الوطنية. في هذا الإطار، من المهم جدا أن نستحضر حجج هؤلاء الذين وقفوا في وجه هذا التنصيب، والتي سجلتها صحيفة يومية إيطالية ذائعة الصيت متخصصة في الشؤون الليبية: " ما الذي يحدث؟ كل الطوائف ترفض بنود

[1] نقلا عن النص الذي نُشر على صفحات مجلة اللواء الطرابلسي بتاريخ 12 غشت 1921.

الاتفاقيات التي وقعها ادريس {...} يوجد تهديد حقيقي بالعصيان، ففي اجتماع في بلدة "الأبيار" دارت خطابات شديدة اللهجة، ووصل أحدهم إلى حد القول: من يكون ادريس هذا؟ رجل جاء من بعيد، ومن المفترض أن يتكلف بإمامة الصلوات وأعمال البر فقط، كما أننا قبلنا به حاكما علينا شريطة أن لا يضعنا في موقف ضعف أمام القوة النصرانية..."[1].

يتضح جليا أن زعامة ادريس لم تكن موضع إجماع، ليس عند إيطاليي طرابلس الذين عارضوا هذا الاعتراف بالحكم الذاتي للأهالي[2] فحسب، بل أيضا عند الزعماء السياسيين الذين رأوا في السنوسية عرقلة لكل تطور سياسي حقيقي في البلاد.

إذا كانت مرجعية المقاومة الليبية ضد الحضور الكولونيالي الإيطالي تتأسس على مبادىء بيان غريان، فمن الواضح أن طول مدة الصراع بين الجانبين منحها إيقاعات مختلفة، حسب مراحل "الاسترداد الفاشي" Riconquista fasciste في ليبيا الذي تميّزَ بتشدد حكومة روما، حتى إنها رفضت أي حوار مع "المتمردين rebelles"[(xi)]. في خضم هذا الصراع، بدأ عنصر جديد يطفو على السطح؛ فقد أدارت الحركة السنوسية ظهرها للأحداث، وتخلّت عن معارك الشعب الليبي وآلامه، بعد هجرة زعمائها إلى مصر. ومع ذلك، ظلت المقاومة أواخر العشرينيات تنشُط في المناطق الأكثر خضوعا للسنوسية، كما هو الحال في فزان، أو في معقلها التاريخي برقة، كما استمر حضور الفكر السنوسي (Sénoussisme) عند محاربي الجبل الأخضر. بيد أن تقلبات الصراع أكسبت المقاومين وعيا سياسيا، أسهم في الحد من

[1] مقال بقلم Popolo Romano نشر على يومية Rome II بتاريخ 17 دجنبر 1921

[2] كانت ردود أفعال المعمرين الإيطاليين بطرابلس عنيفة: " أصبح جمهور طرابلس الآن، وبموجب القانون، الحكَم الوحيد المؤهل لحل المشكلات التي ستُفرز في هذا البلد؛ وقد انبنى موقف الرأي العام الإيطالي على تصريحات وزير المستعمرات. يمكن لهذا الوضع الجديد أن يخدم ويدعم وضعية وزير ما، عند الاقتضاء، ولكن لا يجب أبدا أن يكون عقابا لنا... من الأفضل أن يعلم هذا جيدا !". مقال نُشر في:
II Corriere di Tripoli, 18 sept. 1921

تبعيتهم للرجال المقربين من السنوسية المهاجرة إلى مصر، حيث أضفوا علي الفكر السنوسي دلالات سياسية جديدة غريبة عنه. مع ذلك، ظل خطابا سريا صعب التحقيق بسبب موجة القمع العسكري الإيطالي، وصمْت السنوسيين بمصر. لكن من الممكن أن نستنبط الخطوط العريضة للدلالات السياسية لهذا الخطاب انطلاقا من نشاط عمر المختار زعيم المقاومة المجمع عليه، وبعض كتاباته.

أصبحت تفاصيل الأيام الأخيرة من حياة قائد المقاومة الليبية عمر المختار معروفة، فقد تم القبض عليه بتاريخ 12 شتنبر 1931 في الجبل الأخضر وهو جريح، ووُجهت له سلسلة من التهم، وبعد أربعة أيام من القبض عليه، تم شنقه أمام حشد من عشرين ألف شخص في بلدة "سلوق"، ببرقة[1]. بالمقابل لم تحظ المواقف الإيديولوجية والسياسية لهذا الشيخ المحارب، الذي ناهز عمره ثلاثة وسبعين عاما، بأي بحث، فالدراسات النادرة التي أُنجِزت حول هذه الفترة ركّزت على مسألتين: الجانب العسكري في الضغط الإيطالي على بعض المناطق الليبية، كما هو الشأن بالنسبة للحملة التي جُهزت إلى الصحراء؛ والجانب الكولونيالي عبر التركيز على سياسة موسوليني (Mussolini) الأهلية. لذلك، فإن محاولة تحليل الفكر السياسي لعمر المختار مهمة للغاية، على الرغم من الصعوبات التي تعترضها، والمتعلقة بندرة الكتابات المنشورة، إذ لا نتوفر إلا على بضع رسائل مبثوثة ضمن مذكرات كرتسياني (Graziani) التشهيرية، ورسالة واحدة، على الأقل، منشورة في الصحافة العربية آنذاك. بيد أن عثورنا، في الأرشيف الاستعماري الإيطالي، على سلسلة من الرسائل غير المنشورة الصادرة عن عمر المختار وأعوانه خلال المرحلة الأخيرة من المقاومة، ساعدنا كثيرا في هذه الدراسة. وكانت رسائل "المتمردين" ! {يعني الثوار} هذه،

[1] لقد وظفنا عبارة " معروفة جدا" ولكن في الواقع، فإن التفاصيل التاريخية التي أوردناها حول هذه الفترة، لم تصبح معروفة إلا بعد سنة 1981 م من خلال الوثائق المنشورة ضمن العمل الجماعي حول عمر المختار المشار إليها في الهامش الثاني من هذا المقال. أما قبل نشر هذا المؤلف، فقد كان لزاما علينا الاعتماد على النصوص الفاشية وخاصة مذكرات الجنرال كرتسياني الذي كان مدبر المحاكمة والإعدام.

وَقَعَت في أيدي العسكر الإيطالي بعد القبض على الأشخاص الذين كانوا مكلفين بإيصالها إلى وجهتها في مصر، في مناسبتين: الأولى في 25 غشت 1931، والثانية في 27 شتنبر من نفس السنة، أي بضعة أيام بعد موت عمر المختار.

نتوفر على ملخصاتٍ لهذه الرسائل، وبعض نصوصها الأصلية مترجمة إلى اللغة الإيطالية. وتبدو لنا هذه الوثائق مهمة جدا من أجل محاولة فهم الأفكار السياسية للمقاومة الليبية في المرحلة الأخيرة من الصراع المسلح. في البداية، سنقوم بجرد لهذه الرسائل التي يناهز عددها المئة رسالة (99 تحديدا)، ويمكن تقسيمها على الشكل التالي:

- ✓ إحدى وأربعون رسالة تم حجزها بتاريخ 20 غشت 1931؛
- ✓ خمسة وأربعون رسالة تم حجزها بتاريخ 27 غشت 1931؛
- ✓ أربعة رسائل نشرها كرتسياني؛
- ✓ رسالة واحدة منشورة بجريدة الشورى القاهرية؛
- ✓ ثمانية رسائل منشورة على شكل نسخ (فوطوكوبيphotocopie) بمعرض عمر المختار ببنغازي سنة 1981.

سنفحص الآن هذه المصادر الأربعة[xii] قبل أن نستخلص منها بعض الملاحظات حول دلالاتها السياسية.

1- الرسائل التي وقعت بين أيدي الإيطاليين بتاريخ 25 غشت 1931، بشمال منطقة بير آل حمرين، وُجِدت مخبأة داخل حمولة قافلة من خمسة جمال كانت متجهة إلى مصر عبر الجنوب، متفادية الحاجز الحديدي الشائك الذي أقامه الإيطاليون على الحدود المصرية. يتعلق الأمر

بإحدى وأربعين رسالة، جلها مكتوب بخط يد عمر المختار نفسه، وما تبقى منها كتبه أعوانه ما بين 21 يوليوز و 25 غشت 1931 [xiii]. كانت هذه الرسائل موجهة إلى جهات رسمية في مصر، وبعض القادة السنوسيين، وأعيان من العرب. وتوجد خلاصاتها، أو ترجماتها كاملة بـ"الأرشيف الإيطالي".

2- الرسائل التي حجزها الإيطاليون بتاريخ 27 شتنبر 1931 بعد قتل حاملها محمد مومن قرب واد معطن. يتعلق الأمر بخمسة وأربعين رسالة يبدو أغلبها كأرشيفٍ للتمرد {يعني الثوار}. تحوي هذه الرزمة رسائلَ تمتد من يناير 1928 إلى 14 شتنبر 1931، ولا يتوفر " الأرشيف الإيطالي" إلا على سبع ترجمات وخمسة عشر ملخصا لها؛ بحسب الإشارات الواردة في الرسالة المرفقة التي تحمل توقيع وزير المستعمرات إيميليو دي بونو Emilio de Bono، مع تحليل للرسائل الأكثر أهمية ضمن تلك التي حُجزت عند المتمردين! {يعني الثوار}.

3- الرسائل الأربعة التي كتبها عمر المختار، ونشرها نائب حاكم ليبيا والقائد العسكري الجنرال كرتسياني في يومياته السالفة الذكر "برقة الهادئة"، وتوجد ضمنها رسالة واحدة لا تنتمي لتلك الرسائل المُصادرة.

4- رسالة من عمر المختار تعود إلى يناير 1931، نشرتها جريدة الشورى الصادرة في القاهرة بتاريخ 18 فبراير من نفس السنة، والتي خلّفت صدى واسعا في الصحافة آنذاك، غير أنها لم تتعرض للنقد التاريخي.

5- ثمانية رسائل غير منشورة إلى اليوم، تم عرضها على "القائمة"[1] التي أنجزت باللغتين العربية والإنجليزية، مع توثيق مهم بالصور يعود في أغلبه للأستاذ فرانسيسكو كاسترو Francesco Castro من جامعة فينيسيا، بمناسبة مهرجان عمر المختار الذي نُظم بجامعة بنغازي في ماي 1979.

من الطبيعي ألا نعتبر هذه القائمة من الرسائل نهائية؛ فقد تظهر مصادر إضافية في أماكن أخرى. كما أن البحث المنهجي المنظم في الصحف العربية قد يكشف عن عناصر جديدة. ومع ذلك، فإن تحريات الشرطة والدبلوماسية الإيطاليتين اللتين كانتا يقظتين في هذا الشأن، تجعل هذه القائمة شبه مكتملة ومقبولة في دلالاتها السياسية. تجدر الإشارة إلى أن هذه الملاحظات تَهُمُّ الفترة الأخيرة من حياة عمر المختار، أما بالنسبة إلى المراحل السابقة، خاصة عام 1929، فإننا نتوفر على نصوص وافية قُدمت في تقارير اجتماعات وبلاغات الزعماء الليبيين، قبل وبعد لقاء سيدي رحومة [xiv] الذي أثار نقاشا واسعا، ومنذ ذلك الحين، أصبحت البلاغات السياسية لعمر المختار متاحة للعموم، حيث وُجِدت اقتباسات مهمة منها في الصحافة الصادرة آنذاك. لكن بعد فشل هذه المحادثات، أضحت بلاغات عمر المختار تقدِّم لنا مؤشرات واضحة حول أهداف النشاط السياسي "للمتمردين"! {يعني الثوار}، لذلك، من المهم جدا التذكير بها كما وردت في النص الأصلي، إذا أرادت إيطاليا السلام في ليبيا فما عليها سوى احترام الميثاق الوطني لأهالي طرابلس وبرقة، والذي يمكن تلخيصه في النقط التالية [xv]:

1. تأليف حكومة وطنية ذات سيادة قومية يرأسها زعيم مسلم تختاره الأمة؛

[1] تحمل هذه الوثائق التواريخ التالية: 11 غشت 1929؛ 15 غشت 1929؛ 10 مارس 1930؛ 27 يوليوز 1930؛ 4 دجنبر 1930؛ 27 يونيو 1931؛ 3 مارس 1931؛ وبدون تاريخ محدد (1931)، أنظر The Martyr Omar al-Mukhtar Festival. Catalogue of Exhibition, Rome, S.e. 1979, p. 131 et suiv

2. دعوة جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد؛
3. انتخاب الأمة مجلساً حائزاً على الصلاحية التي يخولها إياه الدستور؛
4. اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في دواوين الحكومة والتعليم؛
5. المحافظة على شعائر الدين الإسلامي و تقاليده؛
6. العناية بالأوقاف و إدارتها من قبل لجنة إسلامية؛
7. العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر و خارجه؛
8. تنظيم العلاقة بين الأمة الطرابلسية – البرقاوية والدولة الإيطالية بمعاهدة يعقدها الطرفان و يصدقها المجلس النيابي[1] (xvi).

هذا البرنامج الذي أثار احتجاجات شديدة في بعض الأوساط السياسية الإيطالية[2]، كشف لنا الأهداف الحقيقية للمقاومة و"إيديولوجية" قائدها عمر المختار. كما أن تحركات هذا القائد على أرض الميدان دفعتنا للتفكير في دور السنوسية في هذا الصراع، وهو في اعتقادنا دور محدود وسلبي بالنسبة إلى إيديولوجية المقاومة المستقلة عن فكر "الحركة السنوسية" ورجالاتها؛ على الرغم من التنشيط الميداني المتواصل الذي كانت تقوم به هذه الأخيرة لصالح المقاومة.

وعليه، إذا كانت هذه العناصر الإيديولوجية قد وُظفت للدعاية لكونها وردت في وثائق مُتاحة للجميع، فإن تحليل الرسائل الخاصة التي لم تكن مُوجهة للعامة، يُظهر أن عُمَر المختار كان يتبنى أفكارا راسخة تتماشى مع أولوياته، من أجل مستقبل البلاد. تجدر الإشارة في المقام الأول إلى أن هذه الحرب مع المستعمر اعتُبرت جهادا مقدسا من أجل بقاء الأمة واستمرارها، وهو الأمر الذي نلمسه في رسالة

[1] يوجد نص الوثيقة في: Oriente Moderno, octobre 1929, p. 451-2
كما تم نشرها إيضا في جريدة تونسية: النهضة، عدد يوم 25 شتنبر 1929.
[2] حول بعض ردود الفعل أنظر المجلات الكولونيالية الإيطالية الصادرة خلال هذه الفترة؛
C. Giglio, La confraternita senussita dalle sue origini ad oggi, Padoue, Cedam, 1932, p. 110 وَ

وجّهها عمر بتاريخ 22 غشت 1931 إلى رجل يدعى الوريدي قال فيها: بيّنتم لي أن بعص الناس {هنا في مصر؟} متألمين للحالة التي وصلنا إليها. وكل من يتصل بها يتألم ويبكي. إن التألم والبكاء بالنسبة لحالتنا شيء قليل لأننا كنا دائما عبر العصور نعاون الضعيف...أننا لسنا في حاجة إلى الكاكاوية (الفول السوداني) {التي أرسلتموها لنا} وغيرها من الأشياء التافهة وإنما نحن بحاجة إلى مواد غذائية وأسلحة إلى المجاهدين المساكين الحاملين للسلاح للدفاع عن الوطن ليلا ونهارا..."[xvii].

وفي رسالة أخرى مؤرخة في نفس اليوم، ومُرسلة إلى رجل يدعى ابراهيم بن الحاج، قال عمر المختار:"...نعاني في سبيل الدين وبِجاه النبي le saint nom du Prophète..."[xviii]، وأضاف في رسالة وجهها إلى "سيدي التواتي بوسريويل" بتاريخ 20 غشت من نفس السنة:" نعيش وضعا مزريا، ولا يسعنا إلا أن نشكر خدامنا وعبيدنا؛ على أي حال فإن الرضا بقضاء الله يهون علينا معاناتنا، فإيماننا لا يتزعزع والأمل باق ومستمر...".

أما بخصوص الآفاق المستقبلبية لهذه الأمة التي عانى عمر ورفاقه من أجلها، فقد وَرَدَ في رسالة منشورة بجريدة الشورى بتاريخ يناير 1931 ما يلي: "...دفاعا عن الوطن والدين، ناضلنا ضد ظلم عدو سيدفع ثمن جرائمه عاجلا أم آجلا...".

فيما يتعلق بالإطار العام للمقاومة الليبية وأهدافها، تبدو لنا ملاحظات دافيكو روسالبا Rosalba Davico مهمة، لأنها تُميز بين المقاومة المسلحة الميدانية (حرب العصابات guérilla)، والمقاومة السياسية التي قادها الزعماء السنوسيون في المهجر، وتُبين أن المثَل السياسي الأعلى لكل واحدة من هاتين الحركتين المناهضتين للاستعمار مختلف جذريا عن الآخر، وإن كان العدو واحدا؛ فالأولى تناضل من أجل الحرية والديمقراطية، والثانية دينية ثيوقراطية. فالمقاومون الحقيقيون هم من يحاربون في الميدان،

" إنه جيل من المناضلين الذين تنكّر لهم التاريخ...كانت هذه الحرب البدوية تشبه إلى حد كبير مع حرب العصابات في منطقة الريف [شمال المغرب] ضد الإسبان، خاصة من حيث تعبئة الجماهير، والمبادىء الجمهورية، حتى أن أحد الكُتّاب تساءل عن إمكانية وجود شبكة سنوسية منظمة نشطة في الريف، أيضا، مع مجموعة عبد الكريم[xix]، على غرار تلك الموجودة في نقاط متفرقة في بعض مناطق المغرب الكبير، رغم أنها كانت، بالتأكيد، أقل نشاطا وقوة مما كان عليه الحال في عقر دار السنوسية بليبيا والسودان الأنجلو– مصرية..."[1]. هكذا، ولأول مرة تمكننا من التعرف على المقاومة المناهضة للاستعمار الإيطالي في ليبيا، واستخلاص عناصرها الإيديولوجية الحقيقية.

تُظهر الوثائق المتعلقة بعمر المختار بوضوح أن المستعمر الإيطالي كان يهدف من وراء الصراع الدائر في منطقة الجبل الأخضر الخصبة، إلى إبعاد الأهالي تمهيدا لاستقدام "المعمرين" المزارعين الإيطاليين. ويبدو من خلال محتوى هذه الوثائق، وخاصة سياقها العام، أن قائد المقاومة في برقة [عمر المختار] كان على علم بتدابير الجنرال كرتسياني بشأن ترحيل أهالي الجبل، وقد أعلن عنها، لاحقا، الحاكم العام في ليبيا بيترو بادوليو Pietro Badoglio في سياسته قائلا: " ...الجبل هو العمود الفقري للاقتصاد الزراعي للمستعمرة، ويجب أن يبقى خاليا من أي حضور أهلي لأنه معد للاستيطان المتروبولي..."[2].

على الرغم من أننا اخترنا بعض الرسائل من ضمن مجموعة كبيرة، يمكن القول إن عمليات التمشيط الإيطالية، واستخدام الطيران في تحديد مواقع القوافل، وتهجير ثمانين ألف نسمة من أهالي الجبل

[1] R. Davico, La guérilla libyenne. 1911-1932, dans l'ouvrage collectif Abd el-Krim et la république du Rif, Paris, Maspéro, 1976, p. 431

[2] رسالة مؤرخة ب 29 يوليوز 1932

الأخضر، وإغلاق الحدود مع مصر بالأسلاك الشائكة؛ أدت إلى تطويق المقاومة في الأخير، وتحديدا سنة 1929، حيث لم تعد لديها سوى انشغالات آنية كانت محط آمال الوطنيين الليبيين، حسب ما يتكرر في الرسائل التي تُقدم بعض الشواهد على ذلك، والتي كانت انعكاسا لأزمة خانقة لم يبق خلالها سوى مجال ضيق جدا للحديث عن مستقبل يزداد سوداوية يوما بعد يوم مع التعنت الإيطالي من جراء محدودية التهدئة الشاملة التي لم تكن لتتم إلا عبر القضاء الكلي على المحاربين بعد تنحية قائدهم عمر المختار.

وهكذا، تبددت آمال الشعب الليبي في الحرية، والديمقراطية، والبرلمان، والحكم الذاتي بشكل مأساوي تحت وطأة ضربات الفيالق الرومانية، وفي ظل صعود الإمبريالية الإيطالية الجديدة، فَكان الصمت سيد الموقف بين الليبيين طيلة عشر سنوات.

Romain RAINERO رومان رينيرو – جامعة ميلانو

تعريب: رابحي رضوان

(i) التهدئة Pacification مصطلح عكسري استعماري دأبت القوى الاستعمارية على توظيفه لتبرير غزوها للمستعمرات والتستر على الحروب التي تشنها على الأهالي، ويقصد بها في النص إخماد حركة المقاومة وإخضاع ليبيا للاحتلال الإيطالي.

(ii) نشأت **السنوسية** على يد أول دعاتها محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي (1787 – 1859م) باعتبارها حركة دينية، ثم طورت برنامجها تدريجيا ليقوم منذ نهاية القرن التاسع عشر على ثلاثة أصول؛ الأصل الديني، ويرتكز على العودة إلى القرآن والسنة، والأصل الاجتماعي، وينبني على إنشاء الزوايا في ليبيا وخارجها، والأصل السياسي

القائم على إنشاء دولة إسلامية كبرى. ومن الواضح من خلال عدد من المصادر والمراسلات الخاصة بعمر المختار، أنه قاد المقاومة باسم السنوسية. للمزيد من التفصيل ينظر: محمد فؤاد شكري، **السنوسية، دين ودولة**، دار الفكر العربي، 1948، ص. 11، ومحمد علي داهش، "عمر المختار وحركة المقاومة المسلحة في ليبيا ضد الاستعمار الإيطالي، 1911 – 1931"، ضمن *مجلة المؤرخ العربي*، ع. 39، س. 15، بغداد، 1988، ص. 14؛ وَ علي عبد الحفيظ حميدة، **المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. 2، بيروت، 1998، ص. 122

(iii) محمد **ادريس السنوسي** هو حفيد مؤسس السنوسية، وُلد في زاوية الجغبوب سنة 1890م، ومُنح لقب الإمارة بموجب اتفاقية الرجمة، غير أن إمارته لم تعمر طويلا أمام ضغط الإيطاليين بعد فشله في تنفيذ طلباتهم، خاصة القضاء على "أدوار" المقاومة، فرحل إلى مصر سنة 1922 بعد أن كلف شقيقه محمد رضا السنوسي وكيلا عنه على شؤون الحركة السنوسية في برقة، وعمر المختار نائبا له وقائدا على للمقاومة المسلحة. وبعد جلاء الاحتلال الإيطالي، وقوات الحلفاء التي دخلت ليبيا نهاية الحرب العالمية، بُويع ملكا على البلاد سنة 1951، واستمر في الحكم إلى أن أطاحت به ثورة الفاتح من شتنبر 1969. توفي سنة 1983م بمنفاه بمصر. للمزيد من المعلومات حول سيرة هذا الرجل يمكن العودة إلى محمد فؤاد شكري، م. س، ابتداء من ص. 183

(iv) يوظف الكاتب هنا نعتا استعماريا يرتكز على أن إيطاليا كانت تعتبر نفسها دولة شرعية في ليبيا، حيث يُعتبر المواطنون الليبيون رعايا إيطاليون يخضعون للسلطات الإيطالية؛ وهكذا فإن كل من عارضها أو قاومها ينعت بالخائن

(v) القانون الأساسي (الدستور): صدر نص القانون الأساسي بتاريخ 13 يونيو 1919م بموجب المرسوم الصادر في الفاتح من نفس الشهر، ويقضي بمنح ليبيا حكما ذاتيا، بحيث يُنصِّب ملك إيطاليا (فيتوريو ايمانوئيل) حاكما ليبيا للبلاد يتولى الإشراف على السلطتين المدنية والعسكرية، ويمنح لليبيين حق انتخاب مجلس للنواب، كما ينص القانون على منح بعض الحقوق والحريات العامة للبيبيين كالحق في التعليم وحرية التدين والصحافة...، غير أن الحكومة الإيطالية تلكئت في الوفاء بوعودها، قبل أن تستجيب لبعض مطالب السياسيين الليبيين، من خلال اتفاقية الرجمة التي وقعتها مع الحركة السنوسية في 1920/10/25م واعترفت فيها بإمارة إدريس السنوسي وإعطائه حق الإدارة. للمزيد حول الموضوع يمكن الرجوع إلى: عميش فتحي ابراهيم، **التاريخ السياسي ومستقبل المجتمع المدني في ليبيا، برنيق للطباعة والنشر**، ط. 1، 2008، ص. ص. 74 وَ 114 وَ أحمد الطاهر الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، الناشرون، دارف المحدودة، ط. 3، لندن، 1984، ص. 369ص. 360 – 369

(vi) نقلنا النص الأصلي **لمؤتمر غريان** عن أحمد الطاهر الزاوي، م. س، ص. 424؛ وميّزنا الجمل والتعليقات التي أدخلها الكاتب، على النص الأصلي، بِرَقْنِها بخط مائل.

(vii) لم نعثر في ما عدنا إليه من مصادر على نص أصلي، إن وجد، يظهر أن الكاتب قد لخص فقرات أو جملا بأسلوبه الخاص، ونسبها إلى بيان غريان، كما يلي: la plus grande de ses aspirations (de la Nation libyenne) est l'indépendance dans la voie de l'ordre, de la sécurité et de la justice

(viii) لم نهتد إلى الأسباب التي جعلت الكاتب يصف سياسة Sciara Sciât بالطبيعية والشعبية، فمن المعلوم أن الرجل يعد من أول القادة العسكريين الإيطاليين الذين قادوا العمليات العسكرية إبان حكم الأتراك، وقد اتسمت حروبه ضد الليبيين بالدموية، للمزيد من التفصيل يمكن العودة إلى:

Daniel J. Grange , **L'Italie et la Méditerranée, 1896-1911: les fondements d'une politique étrangère**, Volume 197,Numéro 2, publications de Ecole française de Rome, et 1469 1994 , p. p.958

[ix] وظف الكاتب هنا عبارة السنة والإباضية للدلالة على طرفي الصلح وهذا غير وارد في الوثيقة الأصلية.

(x) **اتفاقية الرجمة:** بموجب هذه الاتفاقية اعتَرَف الإيطاليون بإدريس السنوسي حاكما مدنيا وزعيما للقسم الداخلي لبرقة، ومنحوه لقب الأمير، مقابل احتفاظهم بسواحل برقة، وعَمَلِ الأمير السنوسي على تفكيك جماعات المقاومة، غير أن المقاومين رفضوا ذلك، ما استدعى إجراء مفاوضات جديدة في "بومريم" حيث تم الاتفاق على بقاء معسكرات المقاومة (الأدوار)، نقولا زيادة، **برقة؛ الدولة العربية الثامنة**، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ص. 63 – 64 إسماعيل أحمد ياغي؛ محمود شاكر شاكر أبو أسامة، **تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر**، ج. 2، دار المريخ، الرياض، 1995، ص. 78

(xi) في هذه الفقرة، وظف الكاتب عبارة **الاسترداد** (Riconquista) وهي تسمية أطلقها الإيطاليون على حروب وحملات إعادة احتلال الأراضي الليبية، ن. م، ص. 66، 67، ويبدو أنها لفظ يحيل على التبرير الإديولوجي للاستعمار الإيطالي في ليبيا، بحيث تحاول السلطات الاستعمارية إظهاره كاسترداد واسترجاع للمجال الترابي لروما خلال العصر القديم. كما وصف الثوار والمقاومين بنعت قدحي وهو : (rebelles) أي المتمردون، وهو وصف ينسجم مع النظرة الكولونيالية التي تجرم الدفاع عن الأرض وتعتبره خروجا عن القانون!

(xii) يذكر المؤلف أن عدد مجموعات رسائل المقاومة هو أربعة، إلا أنه يفصل في خمسة لاحقا.

(xiii) للمزيد من التفصيل يمكن العودة إلى: كرتسياني رودولفو، **برقة الهادئة**، ترجمة ابراهيم سالم بن عامر، دار مكتبة الأندلس للطباعة والنشر، ط. 3، بنغازي، 1980، ص. 290

(xiv) انعقدت هذه المحادثات في **سيدي رحومة**، غير بعيد عن برقة، بتاريخ 19 يونيو 1929، ما بين حكومة ليبيا الإيطالية بزعامة بيترو بادوليو من جهة، وبين حركة المقاومة بزعامة عمر المختار من جهة ثانية، حضرها كل من بيترو بادوليو حاكم طرابلس وبرقة، وسيشلياني نائب حاكم برقة، وعمر المختار قائد المقاومة السنوسية، وتم الاتفاق بداية على هدنة من شهرين من أجل مواصلة المفاوضات، غير أن المقاومين الليبيين رفضوا شروط الإيطاليين التي رأو فيها مجرد استسلام، ففشلت المفاوضات قبل انقضاء مدة الهدنة، للمزيد من التفصيل يمكن العودة إلى: وهبي البوري، م. س؛ وَ خليفة محمد التليسي، **معجم معارك الجهاد في ليبيا 1911- 1931** ، ص. ص. 83. 84، أحمد الطاهر الزاوي، **عمر المختار الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطني في ليبيا**، دار المدار الإسلامي، ط. 2، بنغازي، 2004، ص. ص. 125 – 130

(xv) ورد النص عند R.RAINERO كما يلي:

" Si l'Italie veut la paix en Libye elle n'a qu'à respecter le Pacte National des habitants de la Tripolitaine et de la Cyrénaïque qui se résume dans les points suivants"

(xvi) يتعلق الأمر بما أَطلق عليه "**الميثاق الوطني للشعب الطرابلسي البرقاوي**"، الذي أصدرته "جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي بالشام" سنة 1929. وبمقارنة ما ورد في المقال مع النص الأصلي، يتضح أن الكاتب قد لخّص بعض البنود،

وأوردها ناقصة، خاصة البندين الرابع (حول اللغة العربية) والسابع (حول العفو العام). وقد أثبتنا بنود الاتفاقية كما أوردتها بعض المراجع الليبيية، مع رقن الجُمل التي لم يذكرها الكاتب هنا بخط مائل. للمزيد من التفصيل يُراجع: علي محمد الصلابي، **الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا،** ج. 2، مكتبة الصحابة، ط. 1، الشارقة (الإمارات)، 2001، ص. 232– 233 و 243، وَ عميش فتحي إبراهيم، م. س، ص. 136

(xvii) وردت الرسالة كاملة في ترجمة ابراهيم سالم بن عامر لكتاب "برقة الهادئة" لكرتسياني (م. س، ص. 292) كما يلي: " إلى السيد الفاضل المحترم الأخ والصديق (رافع الوريدي) حفظه الله. بعد السلام وتحية الاحترام. تسلمت رسالتكم وكل ما شرحتم لنا فيها صار معلوما عندنا، وبيّنتم لي أن بعص الناس متألمين للحالة التي وصلنا إليها. وكل من يتصل بها يتألم ويبكي. إن التألم والبكاء بالنسبة لحالتنا شيء قليل لأننا كنا دائما عبر العصور نعاون الضعيف، أما اليوم فنحن الضعفاء. لذلك إن رغبتي الشديدة أن تعلم عمّنا (يعني ادريس السنوسي) أنه أرسل لنا مع (سليمان العماري) بعض الشيء (أي بعض النقود) وكذلك بعض الكمية من الكاكاوية (يعني الفول السوداني) قل له أننا لسنا في حاجة إلى الكاكاوية وغيرها من الأشياء التافهة وإنما نحن بحاجة إلى مواد غذائية وأسلحة إلى المجاهدين المساكين الحاملين للسلاح للدفاع عن الوطن ليلا ونهارا، نتمنى من الله ان لا تخصنا هذه المواد وبالأخص المسلحين كما نرجو من الله أن يصبرنا وأن يعطينا القوة من عنده كذلك نرجو من الله أن لا يحرمنا من خيره العميم".

(xviii) يختلف ما ذكره الكاتب هنا ("... nous souffrons au nom de l'Islam et dans le saint nom (du Prophète")، مع ما ورد في الترجمة العربية التي أنجزها ابراهيم سالم بن عامر لكتاب "برقة الهادئة": "... إن هذا العذاب الذي نعانيه كله في سبيل الدين والوطن"، م. س، ص. ص. 293. 294

(xix) يقصد المؤلفُ **محمد بن عبد الكريم الخطابي** (1882 – 1963 م) قاد المقاومة ضد الاحتلال الإسباني في منطقة الريف بالمغرب خلال الفترة الممتدة مابين 1919 و 1929، من بين أبرز انتصارات الجيش الريفي الذي كان يقوده، معركة أنوال بتاريخ 21 يوليوز 1921. واصل نضاله من القاهرة بعد القبض عليه ونفيه سنة 1929...، عديدة هي الكتابات التي تناولت حياة الخطابي، ونحيل هنا على: **مجلة تاريخ المغرب،** ملف خاص بمحمد بن عبد الكريم الخطابي بمناسبة مرور 100 سنة على ميلاده، العدد 3، الرباط، 1982،

المصادر والدراسات

- A. Martel, in Revue Française d'Histoire d'Outre-Mer, 1984, n° 262-3,
- A.A.Mola, **l'Imperialismo italiano**, Rome, Editori Riuniti, 198O,
- Article sur le quotidien de Rome // Popolo Romano, 17 décembre 1921.
- **colonizzazione dell'Africa del Nord**, vol. 2, Padoue, Cedam, 196O ;
- E. SALERNO, **Genocidjo in Libia. Le atrocità nascoste dell'avventura coloniale** (1911-1931), Milan, Sugarco, 1979

- Il Corriere di Tripoli, 18 sept. 1921
- Lanne**, La querelle des frontières Tchad–Libye**, Paris, Karthala, 1982,
- R. Graziani, Libia redenta, Naples, Torella, 1948.
- R. Rainero, Paolo Valera **e l'opposizione democratica aU'impresa di Tripoli**, rome Breitschneider, 1983
- R. Rapex, L'affermazione délia sovranità italiana in Tripolitania (1921–1929). Tien Tsin (Chine italienne), Chihli Press, 1937,
- Santarelli–Rochat–Rainero–Goglia, **Omar al–Mukhtar e la riconquista fascista délia Libia**, Milan, Marzorati, 1981
- The martyr Omar alMukhtar festival, Catalogue of exhibition, Benghazi: Garyounis University, 1979

- مجلة اللواء الطرابلسي، العدد الصادر بتاريخ 12 غشت 1921.
- جريدة النهضة (تونس)، العدد الصادر بتاريخ 25 شتنبر 1929.
- جريدة الشورى، القاهرة، العدد الصادر بتاريخ 18 فبراير 1931

الرسائل الصادرة عن عمر المختار وأعوانه

- ✓ إحدى وأربعون رسالة تم حجزها من قبل الإيطاليين بتاريخ 20 غشت 1931؛
- ✓ خمسة وأربعون رسالة تم حجزها بتاريخ 27 غشت 1931؛
- ✓ ثمانية رسائل منشورة على شكل نسخ (فوطوكوبيphotocopie) بمعرض عمر المختار ببنغازي سنة 1981، تحمل التواريخ الآتية: 11 غشت 1929؛ 15 غشت 1929؛ 10 مارس 1930؛ 27 يوليوز 1930؛ 4 دجنبر 1930؛ 27 يونيو 1931؛ 3 مارس 1931؛ ورسالة بدون تاريخ محدد (اليوم والشهر) تعود إلى سنة 1931.
- ✓ رسائل وقعت بين أيدي الإيطاليين بتاريخ 25 غشت 1931، بشمال منطقة بير آل حمرين، جلها مكتوب بخط يد عمر المختار نفسه، وما تبقى منها كتبه أعوانه ما بين 21 يوليوز و 25 غشت 1931. توجد خلاصاتها، أو ترجماتها كاملة بـ"الأرشيف الإيطالي".

- ✓ رسائل حجزها الإيطاليون بتاريخ 27 شتنبر 1931 بعد قتل حاملها محمد مومن قرب واد معطن. عددها 45 رسالة تغطي الفترة من يناير 1928 إلى 14 شتنبر 1931
- ✓ الرسائل الأربعة التي كتبها عمر المختار، ونشرها نائب حاكم ليبيا والقائد العسكري الجنرال كرتسياني في يومياته "برقة الهادئة".
- ✓ رسالة من عمر المختار تعود إلى يناير 1931، نشرتها جريدة الشورى الصادرة في القاهرة بتاريخ 18 فبراير 1931
- ✓ ثمانية رسائل غير منشورة إلى اليوم، تم عرضها على "القائمة" التي أنجزت باللغتين العربية والإنجليزية، مع توثيق مهم بالصور يعود في أغلبه للأستاذ فرانسيسكو كاسترو Francesco Castro من جامعة فينيسيا، بمناسبة مهرجان عمر المختار الذي نُظم بجامعة بنغازي في ماي 1979.

Cahiers de la Méditerranée

Une doctrine "nationale" dans la Libye coloniale d'après Omar Al-Moukhtar
Romain H. Rainero

Citer ce document / Cite this document :

Rainero Romain H. Une doctrine "nationale" dans la Libye coloniale d'après Omar Al-Moukhtar. In: Cahiers de la Méditerranée, n°37, 1, 1988. Intellectuels et militants dans le monde islamique [Actes du colloque de Grasse, mai 1986] pp. 253-273;

doi : https://doi.org/10.3406/camed.1988.999

https://www.persee.fr/doc/camed_0395-9317_1988_num_37_1_999

Fichier pdf généré le 13/05/2018

الملاحق

UNE DOCTRINE "NATIONALE" DANS LA LIBYE COLONIALE D'APRES OMAR AL-MOUKHTAR

Après les mises au point récentes relatives à la résistance arabe, à la présence coloniale italienne de ses débuts jusqu'à la veille même de la deuxième guerre mondiale, il est peut-être temps de se poser quelques questions précises sur la signification réelle de cette résistance sur le plan de ses objectifs. Les questions qui se posent sont nombreuses et les observations faites à cet égard par André Martel récemment nous sont précieuses : "Il reste à mieux préciser, par exemple : comment et pourquoi Omar el-Mukhtar a pu tenir (comme l'avaient fait Abd el-Qader et d'autres) ; quels étaient le recrutement et les motivations de ces auxiliaires indigènes sans lesquels, en Libye comme ailleurs, la conquête coloniale n'aurait pas eu lieu aussi facilement ..." (1).

Les historiens italiens de cette dernière décennie ont axé leurs recherches surtout sur l'histoire évènementielle avec une série de "révélations" quant aux aspects stratégiques et aux vicissitudes de cette "pacification fasciste" qui fut souvent à l'origine de la légende coloniale fasciste. Et ainsi on a pu retrouver les étapes, les hommes et les méfaits de cette pacification qui fut, c'est le moins qu'on puisse en dire, assez peu pacifique (2). Dans ce cadre douloureux des efforts des Arabes de Tripolitaine, du Fezzan

Persée creative commons

et surtout de la Cyrénaïque pour s'opposer à la pénétration coloniale italienne deux éléments paraissent désormais s'imposer à notre attention : d'abord la réunion du "Congrès National" de Gharian de novembre 192O et, plus tard mais d'une manière plus éclantante,l'action de celui qui est aujourd'hui appelé "le père de la patrie" libyenne, Omar al-Mouktar. Sur le fond de ce double élément, la permanence-absence de la confrérie des Sénoussiah paraissait, de la lointaine oasis de Djaraboub à la "capitale de l'exil" de son grand maître Idriss Mohammed, le Caire, faire figure de responsable "national" dans un contexte qui, en réalité, était national mais n'attribuait pas d'une manière unanime cette qualité nationale à la position d'Idriss Mohammed. Nous avons évoqué le terme de permanence-absence quant à la disposition du chef de la Sénoussiah pour deux raisons précises : la première se réfère à l'influence restreinte de la Sénoussiah dans le monde libyen tandis que la deuxième est plus politique et évoque la position même d'Idriss et des siens au Caire.

Sur le plan des idées parler d'une doctrine quelconque de genre national dans la Libye de la résistance anticoloniale paraît d'un intérêt certain, mais d'une difficulté accrue par le fait que la fin de cette résistance armée des années 193O-1931 qui vit la décapitation de toute opposition à la politique de la "tâche d'huile" voulue par les moyens militaires des autorités de Rome, entraîna une certaine non-appréciation des motifs idéologiques de cette résistance. L'audience restreinte d'Idriss dans la sphère nationale libyenne et son autorité morale reconnue presque seulement dans la

Cyrénaïque furent souvent évoquées pour en saper l'action politique éventuelle. Et le fait que son action, trop souvent incertaine dans ses options politiques générales, ait son axe en dehors de la Libye (dans les commodités du Caire, disait-on en opposition aux dures conditions de vie des résistants libyens) ne contribuait guère à améliorer son image "nationale".

Quant aux Italiens, l'idée même de parler de quelque chose de noble dans la lutte des "traitres" libyens était absolument impensable dans le cadre historique d'une présence coloniale de l'Italie en Libye. Cette présence était fondée sur la thèse de sa légitimité totale et unique, et considérée soit comme un "retour" de Rome sur une terre qui lui appartenait jadis, soit comme une prolongation métropolitaine de son propre territoire dans un cas presque algérien de situation. Il ne peut pas être oublié, par exemple, que dans le cas le plus éclatant de procès politique, celui d'Omar al-Moukhtar du 15 septembre 1931, les 16 chefs d'accusation attribués au chef de la résistance anticoloniale sont tous du ressort du droit commun et vont de l'agression au vol, de la razzia à l'embuscade, du vol de bestiaux au guet-apens. Aucun délit politique, aucune justification supérieure d'ordre idéologique, malgré les déclarations répétées de l'inculpé, dans un procès dont les actes secrets contribuèrent à étouffer les éclats négatifs et les doutes de légitimité d'une sentence dure -la mise à mort par pendaison- et aucune considération ni pour les motifs réels de l'action de l'accusé, ni pour son âge avancé, 73 ans. La version italienne de "trahison" du chef de la Cyrénaïque, qui fut la version

officielle (mais non celle du procès secret) fut tellement répétée que, même auprès d'un chercheur de nos jours, Bernard Lanne, elle est à nouveau créditée de "vérité" avec l'affirmation :"... Le 11 septembre 1931, Oumar Moukhtar avait été capturé et fusillé (sic !) (il s'était rendu le 13 juin 1929, puis était reparti en dissidence)..." (3). Même après plus de cinquante ans la thèse de la "trahison" chère à l'historiographie officielle fasciste trouve encore du crédit bien que la réalité des documents prouve désormais que jamais Omar al-Moukhtar n'a fait acte de soumission aux autorités italiennes et donc il doit être considéré comme un combattant et non comme un "traitre" à une soumission quelconque. Dans ses mémoires, le général Rodolfo Graziani, qui décréta la mort en sa qualité de vice-gouverneur de la Libye et de commandant suprême militaire en 1931, dut reconnaître son intégrité en écrivant : "il (Omar al-Moukhtar) resta sourd, par fanatisme, à toutes les tentatives de l'amener à la soumission..." (4) Ceci doit être dit pour liquider la légende de la"trahison" d'Omar al-Moukhtar envers une parole donnée aux Italiens.

Mais retournons à l'examen du premier élément que nous avons évoqué pour traiter de l'idéologie nationale de Omar al-Moukhtar : la déclaration solennelle de Gharian du 18 novembre 192O. Elle revêt à nos yeux une importance fondamentale car elle semble être le premier document évoquant d'une manière très claire un élément qui jusque là avait été tout à fait gommé devant la force des chefs et celle de la puissante confrérie des Sénoussiah : la volonté populaire qui prouve la présence d'une Nation avec ses

revendications propres à en établir l'identité et la valeur. La Déclaration en effet n'est pas un document parmi tant d'autres mais la Charte d'une volonté qui apparaît à l'horizon de la population de Libye dans une période dominée par bien des difficultés matérielles. La décision des délégués réunis à Gharian a trouvé dans ce document une forme nouvelle avec un discours qui s'émancipe des difficultés momentanées pour affronter le problème permanent de la forme politique : "La condition dans laquelle le pays est venu à se trouver -affirme la Déclaration- à cause des propos qui sont nés avant et après la Loi Fondamentale (5) peut se révéler propice seulement avec l'institution d'un gouvernement accepté par la masse, sous l'autorité d'un Musulman élu par la Nation qui pourra être révoqué seulement sur la base de notre Loi religieuse et par décision du Parlement qui aurait toute autre autorité religieuse, civile et militaire dans le cadre d'un Statut (constitution)à établir par la Nation par le moyen de ses élus et dont l'autorité s'étendra sur tout le pays..." (6). De ce document, trop souvent oublié même par les spécialistes de la question libyenne, on doit aussi citer le passage dans lequel il est dit que "... la plus grande de ses aspirations (de la Nation libyenne) est l'indépendance dans la voie de l'ordre, de la sécurité et de la justice..."

Ce document qui s'émancipe pour la première fois d'une situation d'observance et d'allégeance envers une autorité qui souvent était apparue comme lointaine, la "dynastie" des chefs de la Sénoussiah, prend position en faveur d'options concrètes pour un

futur politique de la Nation qui arrivait seulement à partir de ce moment-là à se définir ainsi. Donc un net progrès politique déterminé non seulement par l'évolution des esprits après le Statuto mais surtout par la réaction aux propos d'intégration coloniale qui déjà se faisaient jour dans l'opinion publique italienne, confirmant la position qui avait été à Sciara Sciat instinctive et populaire presque sans aspect politique concret. Et c'est sous cet aspect que la réunion de Gharian prend une importance singulière qui trop souvent a été oubliée par les spécialistes de la question libyenne (7). Première affirmation donc d'une "nation" et première revendication d'un statut politique que l'on peut analyser à partir des options qu'il annonce : un gouvernement responsable, issu d'un consensus électoral avec une gestion directe des questions qui s'imposent au pays et avec un objectif "d'ordre, de sécurité et de justice" ; voilà les fondements politiques de cette "Déclaration" qui confirme bien sûr la référence islamique mais l'accompagne d'autres choix. Et dans ce cas il faut peut être déjà parler du choix d'une structure nationale démocratique,parlementaire et représentative.

Les prémisses de la réunion de Gharian doivent être elles aussi considérées comme valables pour l'ensemble des forces politiques autochtones ? Il pourrait en être ainsi car les réconciliations entre les forces locales jusque là opposées les unes aux autres, avec une évidente satisfaction italienne, s'opèrent. Et dans ce sens, l'accord "solennel" signé le 1O août 1921 entre deux parties en opposition, à savoir les sunnites et les ibadites, nous

apparaît d'un grand intérêt, car il nous apprend qu'il y a paix perpétuelle entre les deux partis qui déclarent renoncer à toutes revendications réciproques basées sur des pertes de guerre et appeler sur celui d'entre eux qui troublerait cette paix le châtiment infligé par la Nation toute entière :

> "Nous, notables des deux parties, (sunnites et ibadites), déclarons en présence du Comité de lapaix, qu'à partir de ce jour nous oublions le passé avec toutes ses inimitiés et ses luttes, nous appliquant à observer en secret et publiquement les prescriptions de la Loi enseignée par le Prophète. Tous ensemble, nous établissons une paix certaine que nous respecterons ainsi que l'exigent la religion et l'intérêt du pays.
>
> En conséquence, nous prenons l'engagement de proposer par devant la Nation de ne plus nous battre à l'avenir, de ne nous livrer à aucun acte portant atteinte à l'honneur du pays, de faire cesser toute haine, de faire régner la tranquillité, de considérer comme inexistantes les pertes occasionnées par la guerre, de nous contenter des droits individuels, tels qu'ils étaient avant les hostilités. Celui des deux partis qui commettra un acte hostile après la conclusion de cet accord pacifique aura contre lui tout le peuple tripolitain. Ce dernier a le pouvoir de le punir comme il l'entendra. Si, à l'avenir, des vols ou des actes isolés ont lieu, nous nous engageons à livrer les auteurs à la justice de la charaa et à celle du peuple tripolitain, afin qu'ils soient jugés selon la loi divine... Nous levons la séance en nous donnant le baiser de réconciliation et en invoquant Dieu pour tout le monde islamique et pour la Nation tripolitaine" (8)

Cette volonté d'unité nationale et de pacification idéologique en face des problèmes qui naissaient de la présence coloniale italienne, ne manqua pas de s'exprimer au moment même

où cette présence prit les allures d'une colonisation "démocratique" avec les accords de er-Regima du 25 octobre 192O confirmés par le traité de Bu-Mariam du 3 novembre 1921. Même lors de la signature de ces traités une effervescence politique se fait jour parmi les nationalistes libyens qui contestèrent avec vigueur l'investiture en qualité d'Emir que le Roi d'Italie par ces accords donnait à Idriss, en le reconnaissant comme représentant de l'unité nationale. Dans ce cadre, il est d'un intérêt évident de reprendre les arguments que les opposants libyens rappelaient à propos de cette investitutre : "Que s'est-il passé ? Toutes les populations refusent d'accepter et d'exécuter les accords signés par Idriss" devait constater un grand quotidien romain toujours bien informé sur les affaires libyennes". Il y a une véritable menace de rébellion et dans une réunion à el-Abiar, de violents discours furent prononcés. Quelqu'un alla jusqu'à dire : "Mais qui est Idriss ? Un homme venu de loin, qui devait s'occuper seulement de la prière et de la charité, que nous avons accepté comme chef à condition qu'il ne prétende pas nous mettre dans une situation d'infériorité en face d'une puissance chrétienne..." (9).

Comme on peut le constater aisément le leadership d'Idriss était très contesté et non seulement par les Italiens de Tripoli qui s'opposaient à cette reconnaissance d'un droit indigène à l'autogestion (1O) mais aussi par les chefs politiques auprès desquels la Sénoussiah apparaissait comme une entrave à toute évolution politique réelle.

Si l'idéologie de base de la résistance libyenne contre la présence coloniale italienne se fonde sur les options de Gharian, il n'en reste pas moins évident que la longue lutte se chargera de donner à cette déclaration des tonalités différentes selon les phases de la riconquista fasciste de la Libye dans une optique outrancière qui est le fait du gouvernement de Rome n'acceptant aucun dialogue avec les "rebelles". Et dans cette lutte un élément paraît se dessiner : la mise à l'écart de la structure de la Sénoussiah qui émigre en Egypte et par là même s'éloigne du combat et des souffrances du peuple libyen. Malgré le fait que la résistance de la fin des années vingt se situe dans des zones plutôt touchées par le sénoussisme, le Fezzan ou dans son centre historique, la Cyrénaïque, les vicissitudes de la lutte donneront à ces résistants une conscience de nature politique qui se chargera d'ébranler leur allégeance aux hommes plus proches de la Sénoussiah émigrés en Egypte. Les combattants de la Montagne Verte évoqueront toujours le Sénoussisme mais ils le chargeront de significations politiques qui lui étaient plutôt étrangères. Certes il s'agit d'un discours difficle à faire car le raz de marée de la répression militaire italienne et les silences des Sénoussites d'Egypte ont liquidé ces aspects ; mais il est possible d'en tracer les grandes lignes à partir du chef incontesté de cette résistance Omar al-Moukhtar et de certains de ses écrits.

Il est bien connu qu'Omar al-Moukhtar, le chef de la résistance ultime, celle du Djebel al-Akhdar, fut capturé, blessé, le 12 septembre 1931 et pendu après un procès sommaire le 16

septembre à Soluch devant vingt mille "regroupés" de la Cyrénaïque" (11). La position idéologique de ce vieillard combattant (il avait 73 ans !) n'a jamais été examinée car on a préféré concentrer les rares études sur ce sujet aux phases de la répression italienne sous son aspect militaire, une campagne motorisée dans le désert, ou sous son aspect militaire : une campagne motorisée dans le désert ou encore sous son aspect colonial général : la politique indigène de Mussolini. En réalité une tentative d'analyse de la pensée politique d'Omar al-Moukhtar pourrait être intéressante . Elle se révèle difficile car nous ne disposons que de très peu d'écrits publiés : quelques lettres insérées, dans un dessein de dénigrement, dans les mémoires de Graziani et une lettre, au moins, publiée dans la presse arabe de l'époque. Mais pour nous aider dans notre étude, nous avons retrouvé dans les Archives Coloniales Italiennes une série de lettres inédites émanant d'Omar el-Moukhtar et de son entourage dans la dernière période de la résistance, lettres qui sont tombées entre les mains des troupes italiennes après la capture de celui qui avait été chargé de les faire passer en Egypte pour y être envoyées à leurs destinataires. Ce genre de saisie de la correspondance des "rebelles" a été effectuée deux fois : une première fois le 25 août 1931 et une deuxième fois le 27 septembre 1931, c'est-à-dire quelques jours après la mort d'Omar al-Mouktar.

Nous possédons des résumés de ces lettres et souvent le texte intégral en traduction italienne et la lecture de ces documents nous apparaît d'un grand intérêt pour essayer de

comprendre les idées politiques de la résistance dans cette dernière période de lutte armée. Tâchons, avant tout, d'en tracer un panorama : les lettres de cette dernière période, dont nous possédons le texte ou le résumé, sont presque une centaine, 99 exactement. Elles se décomposent de la manière suivante :

1. 41 lettres saisies le 25 août 1931
2. 45 lettres saisies le 27 septembre 1931
3. 4 lettres publiées par R. Graziani
4. 1 lettres publiées dans le journal du Caire el-Shoura
5. 8 lettres publiées en photocopie dans le catalogue du Festival

Omar al-Moukhtar, Benghazi, 1981.

Examinons à présent ces quatre sources avant de tirer quelques considérations sur leur signification politique.

1. Les lettres tombées aux mains des Italiens le 25 août 1931 au nord de la localité de Bir Hamerin étaient cachées dans les bagages d'une caravane de 5 chameaux qui s'acheminait vers l'Egypte en contournant par le sud le barrage de fils de fer barbelés érigés par les Italiens à la frontière égyptienne. Il s'agit de 41 lettres pour la plupart écrites par Omar al-Moukhtar lui-même, les autres par ses subordonnés, du 21 juillet 1931 au 25 août 1931. Leurs destinataires sont des autorités égyptiennes, les autorités de la Sénoussiah et des notables arabes. Les résumés ou les traductions sont au complet dans les "Archives italiennes."

2. Les lettres tombées aux mains des Italiens le 27 septembre 1931 furent saisies en tuant leur porteur Mohammed Mumen près de l'Ouadi Maaten. Selon l'inventaire il s'agissait de 45 lettres qui avaient souvent le caractère d'archives de la rebellion. Ce lot comprend des lettres qui vont de janvier 1928 au 14 septembre 1931. Dans les "Archives italiennes" il n'y a toutefois que 7 traductions et 15 résumés de lettre ; selon les indications de la lettre d'information qui les accompagnent et qui est signée par le ministre des colonies Emilio de Bono, il s'agissait d'examiner les plus importantes lettres parmi toutes celles prises aux rebelles.

3. Le vice-gouverneur de la Libye et commandant en chef militaire, le général Rodolfo Graziani, a publié dans ses Mémoires, déjà citées (Cirenaica Pacificata) 4 lettres de Omar al-Moukhtar ; une seule n'appartient pas au lot des lettres saisies.

4. Le journal du Caire el-Shoura publia le 18 février 1931 une lettre de janvier 1931 en provenance de Omar al-Moukhtar et cette lettre malgré ses échos dans la presse du même jour est tout à fait inconnue de la critique historique.

5. A l'occasion de la présentation à l'Université de Benghazi du Festival Omar al-Moukhtar de mai 1979 un "Catalogue" en anglais et en arabe fut rédigé avec une documentation photographique importante due pour la plupart au professeur Francesco Castro de l'Université de Venise. Parmi les documents publiés dans le "Catalogue" il y a huit lettres inédites jusqu'à

présent (12).

Naturellement il ne s'agit pas de considérer cette liste comme définitive car d'autres sources peuvent ça et là apparaître. La recherche systématique en direction des journaux du monde arabe pourra apporter d'autres éléments. Mais selon les observations de la police et de la diplomatie italienne qui étaient attentives à cet égard, on peut considérer cette liste comme complète et donc valable dans ses significations politiques. Evidemment, ces observations valent pour la toute dernière période de vie de Omar al-Moukhtar car pour les périodes précédentes nous disposons de textes adéquats qui ont été rapportés dans les compte-rendus des réunions et des déclarations du leader libyen. Et ceci vaut surtout pour la période de1929, avant et après la rencontre tellement discutée de Sidi Rahuma du 13 juin à l'occasion de laquelle les déclarations politiques de Omar al-Moukhtar furent publiques et trouvent donc dans la presse de l'époque des citations éloquentes. Surtout après la faillite de ces conversations, ces déclarations nous donnent d'une manière évidente des indications sur les objectifs de l'action politique de la "rebellion". Il est très intéressant de les rappeler dans le texte original : "Si l'Italie veut la paix en Libye elle n'a qu'à respecter le Pacte National des habitants de la Tripolitaine et de la Cyrénaïque qui se résume dans les points suivants :

1. Un gouvernement national de la Libye sous la présidence d'un chef musulman,

2. Convocation d'une Constituante pour élaborer le statut du pays

3. Un Conseil représentatif librement élu

4. La langue arabe comme langue officielle

5. Le respect des coutumes musulmanes

6. L'administration des biens waqaf confiée à une Commission musulmane élue

7. Amnistie générale pour les délits politiques

8. Règlement des relations entre l'Italie, la Tripolitaine et la Cyrénaïque par un traité qui doit être approuvé par le Conseil représentatif" (13).

Ce programme qui suscita dans certains milieux politiques italiens les plus hautes protestations (14) nous éclaire sur les vrais objectifs de la résistance et donc sur l'idéologie politique de son chef Omar al-Moukhtar. Et ces lignes d'action nous font aussi réfléchir sur le rôle de la Sénoussiah dans cette lutte, un rôle plus restreint et moins unanime que l'on pourrait croire, en faveur d'une idéologie tout à fait détachée des idées et des hommes de cette confrérie qui pourtant avait animé et continuera d' animer la résistance.

Or, si ces éléments idéologiques peuvent être rappelés en tant que documents publics comme partie d'une propagande, l'examen des lettres qui n'étaient certainement pas destinées à être rendues publiques nous prouve que Omar avait, à propos de l'avenir du pays, des idées bien arrêtées selon certaines priorités.

Avant tout le sens de la lutte qui est une lutte suprême pour la survie de la "Nation" ; dans une lettre du 22 août 1931 à un certain Raa el-Ureidi il est dit : "... Vous me dites que beaucoup de gens qui se trouvent là (en Egypte?) se plaignent des temps qui courent chez nous ; se plaindre c'est trop peu pour exprimer la situation dans laquelle nous nous trouvons ; on doit pleurer car une situation de ce genre ne s'est jamais produite en aucun siècle de l'humanité... Et donc, nous n'avons pas besoin des quelques mesures d'arachide (que vous nous avez envoyées) mais de vivres pour alimenter les gens qui sont les armes à la main depuis tant de jours et tant de nuits..."

Et dans une autre lettre du même jour adressée à un certain Sidi Ibrahim ben el-Hag il est dit : "...nous souffrons au nom de l'Islam et dans le saint nom (du Prophète)" mais comme il avait été écrit le 2O août dans une lettre à Sidi et-Tuati bu-Sreuil "le sort cruel nous met à la merci de nos esclaves ; mais ça ne fait rien car ceci était écrit ; notre foi ne vacille point et l'espoir reste résolu..."

Quant aux autres aspects du futur de cette Nation pour laquelle Omar et les siens souffraient c'est en janvier 1931 dans la lettre au journal el-Shoura qu'il est répété que "...c'est la cause de notre patrie et de notre religion que l'on défend contre l'oppression d'un ennemi qui paiera tôt ou tard le prix de ses violences...".

Sur la figure collective et sur les objectifs de cette résistance libyenne, les observations de Rosalba Davico nous

semblent intéressantes car elle distingue les éléments liés à la guérilla faite sur le terrain, de la position de résistance surtout théorique des hommes de l'émigration de la Sénoussiah. Même si l'ennemi reste le même, l'idéal politique qui se dégage des deux activités anticolonialistes est profondément différent : partisan de la liberté et démocratique le premier, religieux et théocratique le second. Les vrais résistants sont ceux qui combattent sur le terrain "c'est une génération de partisans qui est gommée de l'histoire... cette guerre bédouine a des affinités, en ce qui concerne la mobilisation des masses et des idéaux républicains, avec la guerrilla anti-espagnole au Rif, au point qu'un auteur se demande s'il n'existait pas un réseau d'organisations sanussites agissant aussi dans le Rif avec le groupe d'Abd el-Krim, comme il en existait dans différents points du Maghreb d'une façon éparpillée et certes moins active et puissante que dans son état-major en Libye et dans le Soudan anglo-égyptien..." (15). Pour la première fois on distingue la "résistance anticoloniale" et on y introduit des éléments idéologiques ponctuels.

Il apparait clairement d'après les documents de Omar al-Moukhtar que cette lutte était menée en se rendant bien compte que les intentions des Italiens envers les gens de la fertile Montagne Verte étaient celles de leur élimination de leur présence pour préparer la venue des "colonisateurs" ruraux italiens. D'après le texte et surtout le ton de l'ensemble de ces documents on dirait presque que le chef de la résistance cyrénaïque connaissait le contenu des dispositions du général Graziani à propos des

"déportations" des populations du Djebel qui seront plus tard énoncées à Badoglio, le gouverneur général de la Libye : "... Le Djebel, épine dorsale de l'économie agricole de la colonie doit rester libre de toute présence indigène car il est destiné à la colonisation métropolitaine... "(16).

Nous avons certes choisi seulement quelques lettres parmi leur grand nombre mais il faut dire que dans cette dernière période de la résistance désormais à bout de souffle, à cause des ratissages italiens, de l'usage de l'aviation dans le repérage des convois, de la déportation des 8O OOO habitants du Djebel et de la fermeture de la frontière avec l'Egypte par des fils de fer barbelés, il n'y avait que des préoccupations immédiates. Les lettres répètent ça et là des arguments qui avaient été, surtout en 1929, au centre des espoirs des nationalistes libyens mais elles sont surtout le reflet d'une crise terrible durant laquelle il ne restait que très peu d'espace pour répéter les propos sur un avenir qui s'assombrissait jour après jour avec le raidissement italien en vue de la "pacification" totale qui ne pouvait déboucher que sur l'élimination totale de ces combattants après celle de leur chef Omar al-Moukhtar.

270

Ainsi liberté, démocratie, parlement et autodécision devaient sombrer tragiquement sous les coups des légions romaines et dans l'éclat du nouvel impérialisme italien ; et pendant dix ans, pour les Libyens, ce fut le silence.

Romain RAINERO

Université de Milan